



جميع الناس يقولون: قد مر عام على الثورة اليوم الخامس عشر من آذار، وأنا أقول: قد مرت سنة وأحد عشر يوماً؛ لأننا نؤرخ بالتقويم الهجري لا بالتقويم المسيحي في كل شأن عام أو خاص فكيف بالأحداث العظام!

لكنّ عاماً في حق الثوار هو أشبه بيوم، إذ ليل أهل الوصال قصير وليل أهل الهجر طويل. وهذا هو الحق في شأن المحب إذا نال المراد واجتمع بحبيب الفؤاد، ولا يزال ليل المحب طويلاً مادام مبتلى بالهجر مرمتاً بالنوى، وهو ما جرى عليه الشعراء في وصف أشجان المحبين قبل الوصال، كما في قصيدة المتنبي الشهيرة:

لياليِّ بعد الظاعنين شُكُول \*\*\* طوال وليل العاشقين طويـل

حتى إذا نال المحب الوصال قصر الليل في حقه وهرب الزمان من حوله. وكما يُطوى الزمان للمحبين فإنه يطوى للعابدين ويُطوى للمجاهدين، فالليالي عند ثوارنا في بلاد الشام ليال قصارٌ ما أسرع ما تمر إلى الصباح وكأن آخر الليل متصل بأوله. ولذلك أسباب متعددة سوى الطاعة لله وصلة الليل والمناجاة والتفكير، هي الشوق لليوم الذي لما يحمل من العطايا للأحرار والبلايا للفجر، كل يوم تطلع الشمس تزداد بشائر النصر فتجعل الزمان يقف للثوار أو يختصر: فالسنة في حق الثوار أيام معدودات وهي عند زبانة النظام حقب طوال.

والفرق بين ظاهر، إذ كل ساعة تمر على الرئيس تأتي عليه وهو غير مصدق ما يجري فقد كان الرئيس المطاع، تفتح له القصور، وتفرش له الزرابي، ويسعى إليه الملوك، فإذا بكل شيء قد تغير. ماذا جرى؟ يسأل نفسه طول الليل وهو يقلب النظر في السقف بدل النجوم، ثم يعزي النفس بأنه مازال رئيساً حاكماً لدولة ذات سيادة، وأنه سينجو كما نجا أبوه، ولكنه سرعان ما يكفره إذ يتتبه إلى أن الظروف قد تغيرت وأن صوت الشعب قد علا أصوات الحكام في هذا العصر. وهكذا لا يزال يدور كل ليلة في دوامات من الأوهام وتخبط في الأفكار لا نهاية له إلا بالموت. تمر عليه كل ليلة وهو يعلم حق العلم أن الليلة التي بعدها ربما لا تمر عليه إلا وهو قتيل أو طريد أو أسير. ولا يكاد الليل ينقضي إلا وهو يتوقع انقلاباً في الصباح أو انشقاقاً في المساء، وهو يحسب ألف حساب لما سيحدث له إذ ذاك، بعد أن اتسع الخرق على الراقي، وامتدت ثورة الشعب إلى كل مدينة وقرية وشارع وحي ومدرسة ومصنع.

كل يوم من أيام الثورة يمر على الثوار كأنه فُلْكَة مغزَل ما أسرع ما يعود آخره على أوله بالسلام، وكل ليل يمر على النظام كموج بحر، وكأنه أعوام وقرون لا تنتهي، يأتي بما لم يكونوا يتوقعون أن ينزل بهم من البلايا والهموم لعل أشدتها عليهم أن نعمة الأمن قد سُلِّبت منهم، فما ينام أَي مجرم مسؤول من أركان هذا النظام إلا وهو يخاف أن ينشق عليه البواب أو الحارس فيقتله أو تنشق به الأرض عن قبليه فتبلاعه.

نعم... الثوار لا ينامون، ولكن لذةً وحماساً وشوفاً، وال مجرمون لا ينامون ولكن... هلعاً وقلقاً وخوفاً. أبطال الشعب في نعيم، وأذناب الحكم في جحيم، فهيهات هيهات أن يكونوا سواء كما قال الله - تعالى - : {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ \* مَا لَكُمْ كِيفَ تَحْكُمُونَ}. فالثوار يتلذذون بانتظار الفرج، وانتظار الفرج عبادة، ويتعلمون بترقب النصر وهو وعد الله - تعالى - للمؤمنين والمظلومين، ولن يخلف الله وعده. إنهم يعلمون حق اليقين أن النصر غداً أو بعد غد وإن غداً لناظره قريب، ومن نظر إلى الوراء وعد ما مضى من الأيام طالت عليه، ومن نظر إلى الأمام وعد ما بقي له إلى النصر قصرت عليه المسافات. فكل يوم يمتد ويطول فيه عمر الثورة يُقرَّبُ موعد الفرج والنصر كما قال السموأل:

يُقرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَانَا لَنَا \*\*\* وَتَكَرِّهُهُ آجَاهُمْ فَتَطُولُ

فالثقة بالنصر تقرب الموعيد وتختصر الأزمان، وتدبر العنا، فتحلو الأوقات وتصير أعياداً، وهذا حال الثوار إذا نظروا إلى ما تحقق فيما مضى أو تطلعوا إلى ما سيحدث فيما يُستَقَّلُ. لكن معرفة المجرم بنفسه وما تولده من ترقب القصاص والموت تجعل كل ساعة تمر عليه كأنها أعوام من العذاب والأرق والقلق. والأيام حُبالي وستلد نصراً مؤزراً للشعب وهزيمة نكاء للقتلة بقدرة القادر الجبار، وعزّة القوي القهار. {وَيُحَقِّ اللَّهُ الْحَقُّ بِكُلِّمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}، {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّ الْحَقَّ بِكُلِّمَاتِهِ وَيُقْطِعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ \* لِيُحَقِّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}.

نعم.. إنها سنة لكن في التاريخ فحسب، بل سنة وأحد عشر يوماً، وهي عندها كأنها يوم أو نصف يوم، وعند الرئيس ومن معه من جنده وعبيده أعوام طوال. إنهم يذبحون أشد العذاب في كل ساعة تمر أو يوم ينقضي؛ {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}. ومهما طال الزمان فإنه لن يقصر عن إفلات الطغاة.

بعض الناس ينوح بعد انقضاء عام على الثورة، وسمعت من يقول قد مضى عام ولم نحقق شيئاً، وأرى هذا خطأ، إذ الوقت لكل شيء مقدر، والنصر مؤقت لا يتقدم ولا يتأخر، وإنما يطول أو يقصر ويُقرَّبُ أو يبعد بقدر الصدق والإخلاص، والتوكيل على الله - تعالى - والثقة به والالتجاء إليه. ولم ينل أهل بدر من الصحابة النصر إلا من بعد ما صاروا أذلة، ولذلك قال الله - تعالى - خطاباً لهم: {وَلَقَدْ نَصَرْكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ}.

نحن نستقبل عاماً جديداً من عمر هذه الثورة بالتهاني والبشائر، لأن الشعب ثبت عاماً بعد الثورة ولم ينكص على عقبه ولم يرتد على أدباره. هذا طريق الحرية الذي اختار أن لا يرجع عنه، وقد وطّن النفس على ما يُحِبُّ به من الشدائيد. وإذا كانت الجنة قد حُفِّتْ بالمكاره، كما روي عن النبي - عليه الصلاة والسلام - ، أو يُسْتَغْرِبُ أن يُحِبَّ طريق التحرر من العبودية لغير الله - تعالى - بالمهالك؛

نعم.. إن المناسبة عندها تدعو للتهنئة لا للمرزقية: إنه طريق النصر، وكل طريق بداية ونهاية ووسط، وقد تجاوزت الثورة بداية الطريق ووسطه وصارت على أكناف النهايات، وهي تحقق المزيد من الإنجازات. ومن سار على الدرب وصل كما قال ابن الوردي:

لَا تَقْلِيْدَ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ \*\*\* كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ

يطيب لبعض المتهورين عند النظر إلى حمص وإدلباليوم ودرعا وبانياس واللاذقية ودير الزور ودوما وغيرها أن يتحدثوا عن إنجازات الثوار وكأن انسحاب الثوار من بقعة هزيمة للثورة، وهذا خطأ لأن الثوار ليسوا عدوا يحتاج البلاد من خارج وإنما هم الشعب، هم منا بل هم نحن. وإنما انطلقت الثورة أولاً وأخيراً لتحرير الإنسان من العبودية للطاغيت، واسترداد الكرامة التي سُلِّبَتْ والحقوق التي اغتصبت وهذه معان كانت قد استقرت في النفوس وأعمت بصائر الناس حتى جاءت الثورة فأطلقت القيود وحررت الفكر من العبودية للطغاة. ولو لم يكن للثورة إنجاز إلا دفع الآلاف من الشباب إلى الشوارع

يتحدون جبارة الدنيا بجرأة لم تعرف من قبل متوكلين على جبار السماوات والأرض لكتفي، ولو لم يكن للثورة إنجاز إلا كشف ما يخفيه النظام من حقد على الشعب لكتفي ذلك. هذا سوى ما حدث من انشقاقات، وما يُطبع الآن من انقلابات وتحركات. ولذلك نرى أن أمور الثورة بخير وما آل الثورة إلى خير إذ هي في تناٍ وتسارع تُسابق فيهما الزمان فيبدو لذلك قصيراً.

لقد ثبت أن النبي - عليه الصلاة والسلام - تعوذ من الحَوْر بعد الكَوْر، أي من النقص بعد الزيادة، ومن لم يكن في ازدياد فهو في نقصان، ومن نظر إلى ثورة شعبنا بعد عام لا شك أنه سيرى الكَوْر لا الحَوْر، والزيادة لا النقص، وهي زيادة في قوة الثورة، واتساع في رقعة الثورة وازدياد في عدد الثوار، وازدياد في عدد الشهداء. وقد يُقال: أتجعل من ازدياد عدد القتلى والممتهن علامه نصر وفألي خير، وفي الجواب أقول: هؤلاء ليسوا قتلى ولا موتى بل هم شهداء، ولعل خير جواب هو قول الله - تعالى - : {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* إِنْ يَمْسِسْكُمْ قُرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، نعم إن الله - تعالى - أراد أن يرفع أقدار أهلنا وإخواننا في سوريا باتخاذ الشهداء منا، إنه اختصاص وتشريف للفرد والأمة تصل بركته إلى أهل الشهيد وجواره وأصحابه وأهل بلده، نعم هكذا يقول الحق - سبحانه - : {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}، واجبنا أن نثور على الظلم ونأبى الذل استجابة لأمر الله - تعالى - ، وواجبنا أن ندافع عن الحرمات وأن نحمي الأهل والنساء والأولاد، فإذا عجزنا سلمنا أمرنا لله ورضينا بما قدره علينا وقضاه علينا، وقد رُفع الإثم علينا فيما لا نملك بعد أن بذلنا الجهد والطاقة واستفرغنا الوسع والإمكان، إنما الإثم على المثبطين والمتخاذلين.

أنا لا أحب أن أنشد هاهنا في عيد الثورة من كلام أبي الطيب المطلع الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد

وإنما أحب أن أنشد المطلع الآخر من شعره:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم \*\*\* وتأتي على قدر الكرام المكارم  
وتعظم في عين الصغير صغارها \*\*\* وتصغر في عين العظيم العظام

وقد رأينا عزائم الشعب كالسيوف المواضي لا تتردد في الإقدام ولا تفك في الإحجام، وقد فتح باب الحرية والانعتاق، من ظلم هؤلاء الذين - الرفاق وهم مجرمون - تسموا بالرفاق من تسمية الشيء بالضد تفاؤلاً بالنجاة كالمفازة للصحراء والسليم اللديغ.

أجل فالنفوس طاهرة، والعزم صادقة، والجباه ساجدة، وقد صار الأمر بين حياة مع الذل أو موت بعزم، ولو لم يُرد الإنسان أن يدفع عن نفسه، فقد وجب عليه أن يدفع عن أهله وولده وجاره. فلا مناص من النفي، ولا عذر في القعود. وكما قال قطرى بن الفجاءة:

وما للمرء خير في حياة \*\*\* إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المُتَابِعِ

وقد قلت قديماً من قصيدة لي:

وكيف ولم نعط الصغارَ وعندنا \*\*\* نفوسُ أَبِيَّاتٍ ترى الموتَ مولدا  
إذا نطقَتْ فالموتُ حرفٌ يخطه \*\*\* شبا السيف يهوي للظلم مبددا

هكذا يمضي عام ويمرّ ونحن نرى آيات النصر والغلبة، ويرى المجرمون علامات الهزيمة والخذلان، فيحزنون ونفرح ويشقّون ونسعد فالميّت منا إلى الجنة، والحي إلى النصر، والميّت منهم إلى النار والناجي إلى السجن.

أما ما الناس فيه من شدة وكرب وبلاء، نسأل الله العافية منه واللطف فيه، فلا شك أن أوقات الشدة هي أوقات القرب من الله - تعالى - : {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء}، وفي الحديث القدسي: ((يا عبدي مرضت فلم تدعني قال: كيف أعودك يا رب وأنت رب العباد! قال: مرض عبدي فلان فلم تدعه ولو عدته لوجدتني عنده)).

فهنيئاً للشهداء تلك المراتب العالية في الجنان، وهنيئاً لأهل الشهداء ما ينالون بالصبر على البلاء والرضا بالقضاء. هنيئاً للجرحى والمرضى ما هم فيه من القرب من رب العباد، وإن كان ظاهر ذلك ألمًا وسؤال العافية واجب، ولكننا يجب أن ندقق في حقائق الأشياء، فحال المؤمن دائمًا خير كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : ((عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)). وألم العدو الذي يقاتلك ينبغي أن يكون سبباً للتخفيف عنك الإحساس بالألم، وقد جعل الله - تعالى - ألم العدو عزاء وسلواناً للمؤمنين إذ قال: {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون}.

ورضي الله - تعالى - عن سيدنا عمرو بن معدى كرب فقد دفع إلى والدي - رحمة الله - بقصيده التي مطلعها: "ليس الجمال بمثزر"، وهي من عيون الشعر دفعها إلى لاحفظها وأنا في نحو السابعة، لأحمل بعض ما فيها من معانٍ الشجاعة والإباء، وهذا بعض ما قصد إليه، وأختم هذه الشجون ببيت منها يناسب هذا الحال، وهو قوله:

كلَّ امرئٍ يجري إلى \*\*\* يوم الهياج بما استعدَّا

وشعبنا تهياً لمعركة طويلة لن يُؤوب منها إلا منتصرًا، وقد تسلح بالإيمان، وتدرع بالصبر، وهو صاحب حق، سفكت دماؤه، وانهكت حرماته، ونهبت أمواله، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : ((إن الله - تعالى - يستجيب دعاء المظلوم ولو كان كافراً)). فبماذا استعد النظام للمواجهة؟ أُبْقِيَ الأطفال وهنَّك الأعراض، وتعذيب الكبار والصغار استعد؟ أبْمَثَّلَ هذا تُحَكَّم الشعوب وتدار البلاد!!! يا لشُؤُم ما جناه على الرئيس حمُّه وعناده، ويا لآهول ما سيُؤول إليه عن قريب حاوله. أفترون لماذا نستحق التهنة ويستحق المجرمون المَرْزِيَّة بعد انصرام عام من عمر الثورة، وسواء طال الزمان أم قصر، فسيأتي يوم يختصر فيه الزمان وتطوى فيه الأيام، إنه يوم سقوط النظام، فهنيئاً لنا وبيوساً لهم، ويشرى لنا وتعساً لهم.

المصادر: